اسم المقياس:النص الأدبي القديم–شعر–

اسم الأستاذ: محمد سيف الإســـلام بـــــوفلاقـــــة

المستوى:س:01–ليسانس

وقفة مع قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة :

القسم الثاني

النص:

قال ابن خفاجة الأندلسي(من الطويل) :

1- وأرعَنَ طمّاحِ الذُّؤابةِ باذِخٍ يُطاوِلُ أعنانَ السّماءِ بغارِبِ
2- يَسدُّ مهَبَّ الرّيح عن كل وجهَةٍ ويزحَمُ لَيلاً شُهبَهُ بالمناكبِ
3- وَقورٍ على ظَهْرِ الفَلاةِ كأنّهُ طوالَ اللّيالي مُطرِقٌ في العواقبِ
4- يلوثُ عَليه الغيمُ سودَ غَمائمٍ لها من وميضِ البرْقِ حمرُ ذوائبِ
5- أصَختُ إليه وَهوَ أخرسُ صامتٌ فحدَّثني لَيلَ السّرَى بالعجائبِ
6- وقال ألا كم كنتُ مَلجأ فاتكٍ وَموْطِنَ أوَّاهٍ تبتّلَ تائبِ
7- وكم مرَّ بي من مدلج ومؤوّبٍ وَقالَ بظلّيّ من مطيّ وراكبِ
8- ولاطَمَ من نُكب الرّياح معاطفي وزاحمَ من خُضر البحار جوانبِي
9- فما كان إلاَّ أن طوتهم يدُ الرَّى وطارت بهم ريحُ النوى والنوائبِ
10- فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ولا نوحُ وُرقي غير صرخةِ نادبِ
11- وما غيّض السلوان دمعي وإنّم نزَفتُ دموعي في فراق الأصاحبِ

12- فحتّى متى أبقى ويظعنُ صاحبٌ أودّعُ منهُ راحـلاً غير آيـبِ
13-وحتّى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ
14- فرحماكَ يا مولاي دعوةَ ضارعٍ يمدُّ إلى نُعماك راحة راغـبِ
15-فأسمعني من وعظهِ كـل عبرةٍ يُترجمها عنه لسانُ التّجـاربِ
16-فسلَّى بما أبكى وسرَّى بما شجاً وكان على ليل السّرى خير صاحبِ
17- وقلتُ وقد نكّبتُ عنه لطيّةٍ سلامٌ فإنّا من مُقيمٍ وذاهبِ

المحور الأول: وصف الجبل

يتحدث فيه ابن خفاجة عن جبل يطاول السماء بكاهله،ويحول دون مرور الرياح وهبوبها،كما يُزاحم كذلك الكواكب بمناكبه،ولايلبث أن يُضفي عليه بُعداً إنسانياً،فيظهر على أساس أنه شيخ وقور،يطوي الليالي، وهو يفكر في العواقب،وما ستؤول إليه الأمور،وقد جعل له عمامة سوداء،لفتها السحب التي ترتطم به،وقد تدلت منه دوائب حمر من وميض البرق،وهو بذلك يوحي بأن الجبل مثقل بالهموم،ومشغول البال،ودائما يُفكر.

المحور الثاني:حديث الجبل

في هذا الحديث قام الشاعر بسرد الحوار الطريف الذي دار بينه،وبين الجبل،حيث يظهر من خلال هذا المحور أن الجبل يُصغي إليه على اعتبار أنه صاحب تجربة عميقة،مع أنه صامت وأخرس،كما يُحدثه بالعجائب، ويقص عليه قصصاً غريبة،كما يذكر كذلك مواصفات الأشخاص الذين يفرون إليه، فهم يتوزعون على المجرمين،والثقاة الصالحين،فضلاً عن المسافرين والركاب،فهو يجمع بين صنفين مختلفين من البشر:القتلة والعباد بغرض التدليل على أن الإنسان يحمل صفات الخير والشر معاً،وبذلك فهو يومئ إلى نفسه،حيث إنه تحول من المجون واللهو (عهد الشباب)إلى زاهد متبتل(عهد الشيخوخة)،كما يذكر المصير الذي آلوا إليه جميعاً، وهو الموت،فيذرف العبارات

عليهم،ويندب حاله بعدهم،ويُعبر عن تبرمه من الحياة وطول التعمير على هذه الأرض،الذي لم يجلب سوى الأسى على فراق الأحبة،وتوديع الأخلاء.

المحور الثالث:التعقيب على حديث الجبل

في هذا المحور يكشف الشاعر اللثام عن الجبل،ويظهر (الشاعر)على مسرح القصيدة،ويجعلنا نشعر بأنه يُعبر عن نفسه،بعد أن أخذ العبرة من حديثه،حيث إن الجبل شأنه شأن الشاعر محزون ،ومتألم مثله،نظراً لما يراه من مصير للأنام بالاتجاه صوب الموت،وهو مثله أيضاً يستطيل البقاء بعد رحيل أصحابه،ولذا ينتظر نهاية رحلته في الحياة،ويضع على لسانه تحسره على نفسه،فالجبل سيظل ثابتاً وراسخاً،أما هو، فسيأتي اليوم الذي سيرحل فيه[1]

-تلخيص القصيدة:

يتحدّث الشاعر في هذا النّص عن جبل تأمّله أثناء رحلته، فوصفه ثم شخّصه، وأجرى الحكمة على لسانه، وفي ذلك كله يقف الشاعر إزاء الجبل كأنّه مع إنسان حيّ وقورٍ ثابتٍ، باذخ أشم، ضخم لاَ حَدَّ لضخامته ألم به أثناء ترحاله، فرآه وكأنّه يباري جوانب السماء ارتفاعا وعلوًّا، وأحسَّ كأنَّه لضخامته يصدُّ الريحَ أنَّى واجهته، ويزاحم بمناكبه النجوم مهما ارتفعت،وقد تخيّل منظره وما يثير فيه من خواطر، وكأنّه شيخ وقور جاثم على صدر الصحراء، وقد أطرق على مرّ الليالي يفكّر في أمور الدنيا والناس، ونهايتها ونهايتهم،وقد أكمل الغيمُ صورةَ هذا الشيخ الوقور، فنسج حول رأسه ما يشبه عمامةً سوداء، ذوائبها الحمر من لمعان البرق الخاطف.

ثم ينصب الشاعر إلى ما سيلقيه الجبل عليه – أو الشيخ الوقور المعمّم – فينطلق لسانه، وهو الأخرس الصامت، ليُحدِّثَه في ليل السُّرى،أي: خلال مروره به ليلا بأحاديث عجيبة، وحكمٍ مدهشةٍ،وإذا حديثه قصّةُ إنسان سئم الحياة، وملَّ البقاء، وذلك الخلود الذي لا غاية وراءه فقال : إنَّ حوادث الدّهرُ قد عبثّتْ به، فجمع بين المتناقضات في رحابه،فكان مأوى للقتلة الفارين من وجه العدالة، وملجأ للعابدين الزاهدين في الدنيا والناس،وقد مرّ به كثيرٌ من السائرين ليلاً ونهارًا، فكان لهم مساعداً يستظلون بظله، ويستريحون هم ومطاياهم في رحابه،أمّا الرياحُ الهوجاء، فقد عصفت به من كلِّ ناحيةٍ فلم تزحزحْهُ قيد أنمُلة، وكذلك السُّحبُ الخُضر، فكم هطلت وابلاً على ذراه، فما أثّرت فيه، وما أضرته،لكن، أين كلّ هؤلاء ؟ لقد طوتهم يدُ الموت المفترسة التي لا يفلت

---

(1)سامي يوسف أبو زيد:الأدب الأندلسي ،ص:272.

منها أحدٌ،تطوي كل شيء وتتركه هو،كما أنّ بعضهم الآخر قد انتهى إلى البعاد أو نائبة، ويبقى هو وحيدًا متألّما،وما هذا الذي تراه من خفق الأشجار، ونوح الحمائمِ إلاّ ارتجاف أضلعه، وصرخاته على مصير البشر الذين كانوا أصدقاءه، وجيرانه ذات يوم،فهو لمْ ينسَ أحدًا من أصدقائه الذين ذهبوا واحدًا إثر الآخر، وإنما نضبت دموعه من كثرة البكاء لفراق الأصحاب، فقد نزفت نزفا حتى جَفّت،ثم يقول، وقد انتابه السأم والضّجر /مستبطئًا نهايته : إلى متى يمتدُّ بي الأجل ويرحل أصحابي ؟ هؤلاء الذين أودّعُ منهم كلَّ يوم مرتحلاً إلى غير رجعة،وإلى متى أظلُّ ساهرًا أراقبُ النجوم ؟ ما بين نجم يشرق في آخر الليل، وآخر في الوقت نفسه يأفل،ثم يمدَّ يده متضرّعًا متذلّلاً يسأل الله الرحمة والفناء أملاً في واسع نعمته وسابغ رحمته،وأخيرا يعود الشاعر في هذا المقطع الأخير إلى الحديث عن نفسه،ويلخص أثر أقوال الجبل في نفسه، فيقول : وهكذا أسمعني الجبل من وعظه كلّ عبرة، وقد كشف من خلال ذلك عن خبرة طويلة، فكان لي خير صاحب في رحلتي هذه، وكان الجبل قد سلاَّهُ ببكائه،وسرَّى عنه بهذه الأحزان التي قصّها عليه، فحمل إليه العزاء والسّلوان. وقد يكون المعنى هو أنَّ الجبل أراد أنْ يُسليه، لكنّه أبكاه، وحاول أنْ يخفّف عنه، ولكنَّه أحزنه، ومع ذلك كان أحسن صاحبٍ له أثناء هذه السفرة الليلية القاسية الموحشة،ثم يلقي عليه التحية، تحية الراحل (الشاعر) للمقيم (الجبل)، ويقول له : سلام عليك أيها الجبل، فإنما نحن اثنان دائما، واحد يقيم، وآخر يذهب، فلتبق أنت حيثُ كنت أبدًا،ولأرحل أنا كما رحل الآخرون السابقون[2] .

إن الكثير من الدارسين الذين اهتموا بهذه القصيدة،ركزوا على إشكالية الزمن فيها،واعتماداً على رؤى الباحثة فاطمة طحطح، التي تذهب إلى أنه لا يصف الجبل، بقدر ما أنه يصف معاناته، وإحساسه الحاد بالزمن،من خلال هذا المظهر الطبيعي،ذلك الجبل الخاص كما رآه الشاعر وعاينه،لقد مهد لوصفه برحلة ليلية،تعرض فيها للأخطار، والمفاجآت المفزعة ،والرياح الهوجاء،يعاني الوحدة والتفرد،تتقاذفه الفيافي والقفار،ويتحقق له الموت كل مرة،وفي هذا الإطار المخيف على مستوى الزمان والمكان،وبهذا التصوير العنيف لمظاهر الكون،يقوم الشاعر برحلته التي تعد رحلة نفسية داخل أغوار الشاعر ،أكثر منها رحلة واقعية،إنها رحلة الخوف، والوحدة...،فأماني الشاعر في إبادة ذلك الليل، ورغبته الدفينة في القضاء عليه لا تتحقق،فالليل يمتد ثقيلاً (فمزقت جيب الليل،وليل إذا قلت قد باد وانقضى...إلخ)،لتكشف له المفاجأة عن ذئب شرس قاطب،به بدت قطعة من الفجر الأغبش،أعقبها جبل طماح الذوائب،يزاحم النجوم بمناكبه،ذلك الجبل رآه الشاعر كشيخ وقور على ظهر الفلاة،طوال الليل يفكر في العواقب،وقد عصب عليه الغيم عمامة سوداء،احمرت ذوائبها بوميض البرق.... ،وهنا

---

(2)أحمد هيكل:قصائد أندلسية–دراسة أدبية–،ص:80،وسعد بوفلاقة:في سيمياء الشعر العربي القديم،ص:20 وما بعدها.

تتوقف القصيدة عن تقديم الصورة الخارجية للجبل،ليقترب منه شيئاً فشيئاً،يُخاطبه ويُحاوره،ويُحدثه بكل العجائب التي مرت به،يُحدثه بدقة عن ماضيه،ذلك الماضي الذي كان جمعاً لكل مفارقات الحياة:الخير والشر:فكم به من مدلج ومؤوب/وكم لاطمت الرياح الهوج مناكبه/وكم زاحم من خضر البحر غواربه/كم كان ملجأ لذلك العابد الزاهد/وكم كان ملجأ لذلك الآثم القاتل...فما كان من ذلك إلا أن طوى الكل الردى،وطارت بهم نوائب الدهر،وأتى على الكل الزمان،وهاهو الجبل وحيد،مثل الشاعر،يقتله الضجر والملل والانتظار،وما الجبل-هنا-سوى الشاعر في خريف العمر بثبات حركته وركوده،وما الشاعر سوى ذلك الجبل الذي ظهر في صمته وجموده.هكذا خلع الشاعر أحزانه وهمومه على هذا المظهر من مظاهر الكون،وهكذا أيضاً قدم لنا رؤية داخلية للطبيعة،فيها من الآلام والمعاناة، بقدر ما فيها من السوداوية، والتشاؤم[3] .

-صفات الجبل من خلال القصيدة:

لقد تمحورت صفات الجبل من خلال قصيدة ابن خفاجة، على ثلاثة محاور رئيسة:

1-العظمة التي تولد الإعجاب والشعور بجمال الخلق ،وتتجلى في العناصر التالية:
الارتفاع في شموخ ونتوء القمة(طماح الذؤابة-أرعن-باذخ-يطاول أعنان السماء بغارب-يزحم الشهب)
-ضخامة الحجم وثقل الجبل، ورسوخه في المكان:يسد مهب الريح من كل وجهة،على ظهر الفلاة.
-الصمود في وجه القوى العظمى في الكون والطبيعة،إضافة إلى تحدي الزمان والمكان:نُكب الرياح،خضر البحار،على ظهر الفلاة...إلخ.
2-الصفات المستعارة من الإنسان:
-العقل:وقور-مطرق في العواقب
-الفعل الإرادي:يطاول-يسد-يزحم.
3-نعوت مادية تحيل على خصائص المحيط الجغرافي الأندلسي:
-عليه الغيم،فرع من الثلج[4]

ومن الواضح من خلال الصفات التي أطبقها على الجبل، أن معاني النص عميقة، ولسنا نعني بالعمق الغموض والإبهام، ومعميات الفكر،وإنما يُقصد بهذا الأمر امتداد المعنى وثباته أمام

---

(3)فاطمة طحطح:الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ،ص:220.
(4) سليم ريدان:ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي ،ص:361.
(2) سعد بوفلاقة:في سيمياء الشعر العربي القديم،ص:24.

التأمل الفكري، فالمعنى العميق لا يدرك كلّه للوهلة الأولى، وإنّما يعطيك الأديب طرفا منه تتعلق به لدى رغبتك في التأمل، ثم تحس بعد ذلك بدافع داخلي قويّ إلى إمعان النظر فيه وكلّما أمعنت النظر في تأمله، تكشفتْ لك فيه نواحٍ جديدة،ومعاني النص تريك قدرة ابن خفاجة في الغوص على المعاني، وقوة التصوير، والإجادة فيه، فقد تميّزت معانيه بالعمق، والتشخيص للجبل، وإجراء للحكمة على لسانه، فإذا هو إنسان يفكر، وينطق ،ويعظ، وترتجف ضلوعه وقاده هذا التصوير إلى شيء من التعقيد والغرابة، فاستغلفت معانيه أحيانا على القراء، ولكنه ابتكر بعض المعاني الواردة في هذا النص الذي يُعدُّ من عيون الشعر الأندلسي لما فيه من طابع قصصي يقل وجوده في الشعر العربي، وأيضا لما فيه من تشخيص للجبل[5]،حيث يبدو الجبل وأن له من الصفات ما يحيل على التصور القرآني لهذا العنصر من الطبيعة،فهو من «الراسيات»،وعظمته تلوذ بالصمت،ما يؤدي إلى تفاقم سرها،ولا يفهم هذا الأمر إلا من له وعي بمعاني صمت الطبيعة،وهذا ما يوضحه ابن خفاجة في القسم الخاص بحديث الجبل،فهو قد وصف الجبل بالصمت والخرس،ولكنه «علّق به ثلاثة أفعال تفيد الكلام والتبليغ (حدثني–وقال–أسمعني)،ونقل كلامه في أسلوب مباشر متعلق بضمير المتكلم،من البداية إلى النهاية(كنت–مربي–يامولاي...)،ونعت الحديث في البداية بالعجائب،ثم علق عليه في النهاية بكونه(وعظاً)،و(عبرة)يُترجمها عنه لسان التجارب،معنى هذا أن حديث الجبل يتعلق بتجربة هذا العنصر الطبيعي في الوجود،والشاعر قد وجد فيها ما به يعتبر فيخرج من حيرته.

وقد تألف حديث الجبل من ثلاث وحدات معنوية،تناسب كل منها وجهاً من تجربة هذا العنصر الطبيعي في الوجود:

1–وجه العظمة والصمود أمام الزمان وطول البقاء.

2–وجه الملل والضجر من طول البقاء في وحشة الوحدة.

3–التعلق برحمة الخالق»[6].

ومن بين التفسيرات التي قُدمت عن هذه القصيدة التفسير الذي يربط الواقع التاريخي بالنص،حيث إن ابن خفاجة استخدم الجبل بصفته رمزاً من رموز التماسك ،والشموخ، والصلابة التي يتماناها ابن خفاجة لبلاده الأندلس،وكأنه ينشد التماسك في الجبل بعد أن رأى بلاده تنهار وتتمزق،فالجبل هو بمثابة النقيض للأندلس المتمزقة والمنهارة،حيث يقول في هذا الصدد أحد الباحثين: « إن وصف الجبل عند ابن خفاجة ليس هدفاً في ذاته،وليس موضوعاً أراد الشاعر أن يتناوله،والذي دفعه إلى الحديث عن الجبل هو ما يتصف به الجبل من القوة والصلابة والتماسك

---

(6)سليم ريدان:ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي ،ج:1،ص:362.

(2)عبد الهادي زاهر:التحليل البنائي للموشحة ودراسات أندلسية أخرى،ص:84.

والثبات،وكلها صفات افتقدتها الأندلس زمن ابن خفاجة الذي أراد أن يُجنب بلاده بوادر التفكك والتصدع والانهيار،فاختار الجبل ليضعه مقابلاً لها في هذه القصيدة،فهو لايصف الجبل بقصيدته وإنما يحيل بلاده جبلاً،يجعل الجبل حقيقة استاطيقية ويضعه في موضع بنيان الأندلس المتداعي أو الذي بدأت بوادر تداعيه»[7]

غير أن التفسير الموضوعي الذي يتفق عليه الكثير من النقاد، هو أن الشاعر قد خلع على الجبل صفات إنسانية،فليس أمامنا سوى رجل محنك ومجرب،يعي ويعظ،ويتضرع شاكياً باكياً فيبث بشكواه الحزن والشجو في نفس الشاعر،وقد عبرت القصيدة عن نظرة الشاعر تجاه الحياة،وإحساسه بالتبرم بعد ذهاب إخوانه وخلانه،فالسأم والضيق هما متأصلان في أعماقه،وليسا في الجبل،فهو يُسقط مشاعره وأحاسيسه ونظرته إلى الكون على الجبل[8] .

ومن بين الرؤى التي قدمت عن القصيدة، تلك الرؤية التي ارتكزت على التكوين النفسي للشاعر ابن خفاجة، الذي هيأه إلى هذه التجربة الشعرية،حيث يشير بعض الدارسين إلى أن الشاعر كانت له ثقافة دينية،بالإضافة إلى حس مرهف، وخوف عميق من الله سبحانه وتعالى،مع خشية من الموت،ومن بين ما يُذكر في هذا الصدد القصة التي رواها الضبي من أن ابن خفاجة كان يخرج من جزيرة شقر،وهي موطنه في أكثر الأوقات،إلى بعض تلك الجبال التي تقترب من الجزيرة،ويظل وحيداً،حتى إذا صار إلى جبلين نادى بأعلى صوته:يا إبراهيم تموت،يعني نفسه،فيجيبه الصوت ولايزال كذلك حتى يخر مغشياً عليه[9]

وقد جاءت قصيدة وصف الجبل في أربعة مشاهد رئيسة–كما يذكر الباحث منجد بهجت– «أما أولها فيمثل حالة الاضطراب النفسي والقلق والتوتر اللذين كان عليهما الشاعر،إذ أديا به إلى الضرب في الأرض والسياحة بين الشرق والغرب،وحيداً فريداً،وأما ثانيها فهو نهاية مطافه إلى الجبل،حيث يصفه فيسبغ عليه ملامح الكائن الحي فيشخص منه شيخاً وقوراً قد عركته الأيام،وأما ثالثتها فهو سماعه لحديث الجبل الذي يحدثه بالعجائب،وما مر به من أقوام،ويرى أن الجبل يحتمل بين جوانحه قلباً ينبض بالحياة،ويستشعر ما يجري حوله من تغير وتبدل،وقلبه يختلج ويضطرب أسى وحزناً،على تغير الأحوال،وحلول الآجال...ثم يصور لنا الجبل–صورة لنفسه–برماً ضيقاً صدره بما يجري حوله،فطية الردى ليست هينة،ونائبات الزمان تتخطف الألباب،وتطيش لها اللحوم،وتسيطر عليه

---

(1) محمد مجيد السعيد:الشعر في عصر المرابطين والموحدين ،ص:138.

(2)منجد بهجت:الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي ،ص:499.

لحظات رعب وخوف من المصير الذي ينتظره،لما يجري حوله،ولا يملك إلا أن يمد يد الضراعة إلى الله سبحانه وتعالى،فقد بلغ به السأم من توديع الأصحاب ورعي النجوم ما بلغ.

وأما رابعها فهو الذي يمثل غاية الرحلة وهدفها الذي دعا الشاعر لحوار الجبل ومسامرته،إذ يستمع إلى حكمه وعبره فيسليه ويسري عن نفسه،بمشاركته الوجدانية بالبكاء والشجو الحزين،فما يملك إلا أن يسلم عليه سلام المودع،ويلوي عنان فرسه لأنه حل له لغز الحياة خلال حواره معه»[10] .

---

(10) منجد بهجت: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي،ص:505، عبد الله محمد العضيبي:النص وإشكالية المعنى،ص:103.

(2) إحسان عباس:تاريخ الأدب الأندلسي-عصر الطوائف والمرابطين-،ص:205.